محاضرة:

مفهوم المصطلح النقدي

1-المصطلح النقدي:

حاول النقاد القدامى معالجة القضايا الأدبية، والنقدية بما يناسبها من معجم مصطلحي، يتّسم بالوضوح والتداول، وبلوغ الغاية المعرفية، ولا يتحقّق ذلك إلا من خلال ضبط منهجي للمصطلح. وبالعودة لمفهوم المصطلح في المؤلفات القديمة، فإنّ نص الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أقدم ما وصلنا من استعمال لدلالة المصطلح حيث يقول الجاحظ في حديث بشر بن المعتمر الذي يفصّل فيه أصول البلاغة والخطابة:" ولأنّ كبار المتكلّمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني. وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسمٌ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع"

وتمحورت دلالة لفظ "اصطلحوا" في نص الجاحظ حول الاتّفاق، في اعتماد أسماء بعينها عند المتكلّمين، وهو ما يشير لاتفاق معنى المصطلح، والاصطلاح عنده.

وجاء في كتاب التعريفات للجرجاني:" الاصطلاح: إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما، وقيل: الاصطلاح: اتّفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل: الاصطلاح إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد، وقيل: الاصطلاح لفظ معين بين قوم معيّنين."

ويتكرّر استخدام لفظ الاصطلاح في المؤلفات القديمة، وتذهب معظم الدراسات الحديثة إلى أنّ لفظ "الاصطلاح" مرادف " للمصطلح" في النقد القديم.

وأنكر يوسف وغليسي ما ذهب إليه بعض الدارسين من غياب لفظة " المصطلح" في الاستخدام القديم، وعدّه استقراء ناقص، وأشار في سياق حديثه إلى بعض الكتب القديمة التي وردت كلمة" المصطلح" فيها.

والمصطلح في الدراسات الحديثة هو "كلمة أو مجموعة من الكلمات من لغة متخصصة علمية أو تقنية يوجد موروثا أو مقترضا للتعبير عن المفاهيم، ليدلّ على أشياء مادية محددة.

والمصطلح عند وغليسي علامة لغوية خاصة تقوم على ركنين أساسيين يستحيل الفصل بين الدال التعبيري فيها، والمدلول المضموني. أحدهما الشكل، والأخر المعنى.

أما مفهوم المصطلح في اللسانيات فإنه يستند إلى وظيفة اللغة باعتبارها وسيلة تعبير تستخدم للتواصل فهو" لغة خاصة أو معجم قطاعي يسهم في تشييد بنائه ورواجه أهل الاختصاص في قطاع معرفّي معيّن. ولذلك استغلق فهمه واستعماله على من ليس له دراية بالعلم الذي هو أداة لإبلاغه. إلاّ أنّ هذه اللغة القطاعية تتّصل باللغة العامّة المشتركة، ولا تكاد تخرج عن الأصول التي تتحكّم فيها.

وتتأكّد أهمية المصطلح في النظام التواصلي، والمعرفي من منظور استحالة تحقيق العلوم بعيدا عن توظيف المصطلح. ويرى عبد السلام المسدي أنه: "إذا عالجنا قضية المصطلح من منطلق لسانيّ نقديّ رأينا أنّ كلّ مجموعة بشرية ترابطت لغويّا فتحوّلت إلى مجموعة ثقافية حضارية فإنها تواجه على الدوام مدلولات جديدة عليها، إمّا بحكم استحداث الأشياء أو بحكم اكتشافها، وبديهيّ أنّ المدلولات سابقة لدوالها في الزمن لذلك كانت الالفاظ وليدة للمعاني في أصل نشأتها فإذا استقرّت في الاستعمال وتواترت أصبحت المعاني وليدة للألفاظ بحكم التقدير.

2-ضوابط وضع المصطلح النقدي:

يشترط في المصطلح النقدي أن يحقق الغرض من استعماله، ويتمّ ذلك من خلال اتّفاق العلماء عليه، للدلالة على معنى من المعاني، وقد حاولت الهيئات اللغوية ضبط المصطلح في العربية بما في ذلك المصطلح النقدي، سعيا منها لتجنب الفوضى، والاضطراب في الجهاز

المصطلحي، وقد دعت إلى مراعاة خصوصية البيئة العربية عند نقل وترجمة المصطلح إلى العربية، ذلك أنّ الكثير من المصطلحات النقدية تم استيراده من بيئة أجنبية، إلى جانب بعض المصطلحات التي تمّ استحداثها من الموروث اللغوي.

وتتّفق الهيئات العربية، الممثلة في المجامع اللغوية في كثير من الدول العربية في مجموعة من الضوابط تكفل المنهجية في صنع ونقل المصطلح إلى الساحة العربية، ففي مجال وضع المصطلح يُشترط:

-مراعاة المماثلة أو المشاركة بين مدلولي اللفظة لغة واصطلاحا.

-الاقتصار على مصطلح واحد، وتجنب تعدد الدلالات.

-إيثار اللفظة المأهولة على اللفظة النافرة، وصعبة النطق.

-إيثار اللفظة المفردة على العبارة أوالمصطلح المركّب.

أما بخصوص استخدام المصطلحات الأجنبية فيشترط تكييفها مع ما يتناسب وخصوصية اللغة العربية، عند نقلها إلى الدرس العربي.

3-إشكالية المصطلح النقدي:

لقد أنتجت عصور النهضة الغربية وما بعدها من المدارس المتصارعة فيما بينها، كثيرا من النظريات النقدية والأدبية التي تأثر بها كثير من الباحثين والدارسين العرب الذين تأثروا بها وحاولوا تطبيقها على النصوص الإبداعية العربية.

ويعدّ المصطلح النقدي، الوجه البارز للمناهج والنظريات الوافدة إلى ساحة النقد العربي، وهو "رمز لغوي (مفرد أو مركب) أحادي الدلالة، منزاحُ نسبيا عن دلالاته المعجمية الأولى، يعبّر عن مفهوم نقدي محدّدٍ وواضح، متّفق عليه بين أهل هذا الحقل المعرفي، أو يرجى منه ذلك"

ولقد سعى نقادنا القدامى في مرحلة ازدهار النقد العربي أمثال الجاحظ، وابن طباطبا، والقاضي الجرجاني، وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجنّي...، إلى بناء نتاج يتناسب والبيئة العربية، وإن كان في بعض جوانبه، ودلالاته يحمل صبغة الثقافات الأجنبية. ولم يشعر الناقد العربي آنذاك بإشكال في المصطلح الذي يوظفه في دراسته النقدية.

وقد "أثارت الثورة اللسانية والنقدية التي شهدها هذا القرن والتي مثلت الستينات أبرز منعطفاتها وبؤرها المتفجرة مشكلات كبيرة في مجال وضع المصطلح اللساني والنقدي وترجمته وتعريبه أمام الباحثين واللسانيين والمترجمين والنقاد العرب. فقد ظهرت إلى الوجود العشرات من المصطلحات الجديدة التي لم تكن مألوفة أو معروفة من قبل بالنسبة للمعجم اللساني والنقدي العربي."

وفي الواقع يمكن أن نعود ببداية إشكالية المصطلح إلى ما قبل فترة الستينات من القرن العشرين، فقد ظهر اضطراب بعض المصطلحات في نهاية القرن التاسع عشر بدخول مصطلحات أجنبية إلى اللغة العربية تُرجمت ترجمة غير دقيقة ذكرها محمد حسين المرصفي في كتابه " الوسيلة الأدبية" منها المعرفة والثقافة والعلم.

وزاد عدد هذه المصطلحات المضطربة، لتبلغ ما يقارب المئة مصطلح في نهاية القرن العشرين، كمصطلح العلمانية، والحداثة، والأصولية...

وحاول أهل الاختصاص في الساحة العربية تدارك ذلك و" شهدت الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية حركة عربية ناشطة للتعامل مع هذا الانفجار المعجمي والاصطلاحي الجديد سواءً ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم."

ولم يكن الأمر سهلا ويسيرا، وإنما جابهوا كثيرا من المصاعب والمتاعب؛ منها ما يتعلق بخصوصية النص العربي لغويا، ومنها ما يتعلق بالفكر العربي بمختلف مشاربه وروافده التي تغذى منها. ومنها ما يتعلق بثقافة الدارس الذي نقل لنا المنهج، فكانت ما يعرف الآن بأزمة المنهج، وأزمة المصطلح.

فثقافة الأدباء والنقاد العرب تختلف بين فئة تمتلك ثقافة أجنبية، تمكّنها من قراءة الأدب الأجنبي، والدراسات النقدية باللغة الأجنبية. أي أنها تطّلع على النتاج الأدبي والنقدي بلغته الأصلية، وبين فئة تقرأ الأدب والنقد باللغة العربية.

و" أدى هذا الاختلاف في لون الثقافة وطريق تحصيلها إلى أن يأخذ من يقرأ باللغة الأجنبية مصطلحاته عن اللغة التي يعرفها فيقع الاختلاف، والتفاوت كما حصل بين المغرب العربي، والمشرق العربي. ويغدو الأمر أكثر صعوبة واضطرابا مع من يعتمد على الدراسات في شكلها المترجم من أصحاب الثقافة العربية.

وفي هذا السياق، يقول عبد العزيز حمودة: " إذا كانت هناك أزمة مصطلح بهذه الخطورة بالنسبة للمتلقي من داخل الإطار الثقافي الذي أفرز هذا الفكر وتلك المذاهب النقدية، فلا بد أن أزمة المصطلح بالنسبة للمتلقي من خارج ذلك الإطار أكثر خطورة وحدّة. فالمصطلح الذي لا يشير إلى دلالات معرفية محددة، بل يحدث إرباكا داخل الواقعين الحضاري والثقافي اللذين ارتبط بهما، حريّ بأن يحدث فوضى في الدلالات المعرفية عندنا أصحابَ الأطر الثقافية والقيم المعرفية المغايرة تماما."

والتحمس لكل شيء يرد في المنظومة الثقافية الغربية، ومحاولة إدخاله في المنظومة العربية، ينبغي أن يحاط بالحذر، وينبغي ألا يكون تقليدا أعمى، وإنما وجب على الذي يفعل ذلك أن يكون على علم بنمط العقلية العربية، وفي المقابل نمط العقلية والفلسفة الغربية. إننا حينما نستخدم مفردات الحداثة الغربية ذات الدلالات التي ترتبط بها داخل الواقع الثقافي والحضاري الخاص بها، نحدث فوضى دلالية داخل واقعنا الثقافي والحضاري.

إن التسليم بكون المصطلح النقدي المعاصر صناعة غربية، يجرنا إلى الجزم بأن معالم الفوضى والاضطراب لم تفارق كثيرا من مفاهيمه. وذلك لأن الخلفيات المعرفية التي أنتجته مغايرة لما عند العرب. وحري بنا أن نأخذ الحيطة والحذر حين نتعامل مع تلك المصطلحات، من دون أن ننساق وراء بريقها ولمعانها.

ولقد انقسم النقاد إلى فريقين في هذا الشأن. فريق يرى أن غياب اللغة المشتركة يقضي على الشعور بالألفة اللغوية والفكرية أو الثقافية، ويؤدي إلى قطع الصلات التي تصل بين

النص والقارئ؛ لأن غموض الفكر يؤدي إلى غموض اللغة. وهناك فريق يرى أن الاهتمام بالكتابة النقدية مسايرة للعصر ومواكبة لحركات التطور الثقافي العالمي.

ونظر بعض الدارسين إلى مسألة الانفتاح الحاصلة في الساحة العربية على أنها ظاهرة صحية "وحين تغدو الوفرة الاصطلاحية مظهر غنى ودليل ثراء، بعيدا عن الفوضى أو العشوائية أو التخييل بالجدة، لا تنفصل هذه الوفرة عن نوازع التّجدّد الدائمة في الحقل الأدبي ولا عن مدى التأثير والتأثر في الحقل النقدي. وكلا الحقلين غير بعيد عن الآخر في مناقلة السبب والنتيجة"وهو ما يؤكّد النقلة الإيجابية في جميع مناحي الإبداع، الأدبي والنقدي.

من هنا ظهرت المعاجم والقواميس التي تسعى لرصد، وجمع، ومواكبة المصطلحات الخاصة بمختلف المجالات العلمية، وكذا مجالات الأدب، والنقد بكلّ فروعه، بل معاجم خاصة بمختلف المناهج الأدبية والنقدية " وتكتسب هذه الوفرة الاصطلاحية معناها الكاشف عن طبيعة عصرنا حين نضع في اعتبارنا تسارع إيقاع العلاقات المتبادلة بين مجالات المعرفة المختلفة التي ما كان أحد يظن إمكان قيام علاقات بينها، وذلك على نحو أفضى إلى الطفرة المتواصلة في الدراسات البينية التي اتسعت دوائرها الواصلة بين المجالات المتباينة"